هلا.. يا عيوني

فاطمة يوسف العلي

كان الفوهرر محتدم الوجه، يقف على المنصّة، نظرتُهُ نارية تثير الصفوف المتراصة باتساع الميدان، وقَصّته جناح الغراب» تتدلّى على جبينه. الأعلام الحمراء تغطّي المداخل وتتقدّم كل الصفوف.. لكنّ الصلبان عليها ست كلّها معقوفة! عجيب راح يتلهّى بحصر أشكال صلبان، وأخذ يعد: هذا معقوف، وذاك صليب عادي، وذلك ثري كالزوبعة. التقت عيناه بعيني هتلر، اجتذبته النظرةُ نارية كما يلتقط المغناطيس مسماراً من بين نشارة خشب. قال له الفوهرر:

– أنت.. هناك.

حاول أن يتهرّب. نظر جانباً متصنعاً الهدوء.. لكنّ النداء كرّر..

– أنت.. أنت.. يا «هِرْ» جاسم!!

ازدرد ريقه بصعوبة: «داهية، ويعرف اسمي!»

– تعال إلى هنا؟ كم نوعاً من الصلبان وجدت؟ ولماذا تهتمّ بهذا الموضوع؟

توقّفَتْ دفعةُ الريق فوق الحنجرة، حبستْ أنفاسه.. حاول أن يعتذر.. دفعته يدٌ ضخمة من خلفه في اتجاه المنصّة. لم يملك الامتناع، زحف كأنّما يتّجه إلى قاطرة تدهسه.. نظر بذُلٍّ إلى صاحب اليد التي تسوقه إلى حتفه، لم يجد أحداً خلفه.. كان الميدان خالياً تماماً! متى انسحب الناس، وكيف؟ وهل يأذنُ لهم هتلر العظيم أن ينصرفوا ويتركوه واقفاً على المنصّة؟!

بسرعة فكّر:

هل هذا لمصلحته، أو ضدّه؟

وقبل أن يصل إلى قرار كان أمام الفوهرر وجهاً لوجه، أنفاسه تغطّي وجهه، قبل أن يرفع يده بالتحيّة المقدّسة هاتفاً كما يجب: «هاي هتلر». كان يشير بأصبعه في اتجاه عينه تماماً، ويقول له بصوت غريب:

– جاسم، ما وعدتني أن تتزوج أوليفيا.. أنت تَعِدُ، وتخلف!

فرح كثيراً حين سمع هتلر يخاطبه بلهجته.. لكن.. لِمَ كان صوته يشبه الممثّل حسين رياض في فيلم مع عبد الحليم حافظ كان اسمه..

لم يعثر على اسم الفيلم، تضايق جداً، رفس برجله، أصابت حافة السرير، أوجعته، استيقظ..

– شنو هذا؟! اللهم اجعله خير.

تطلع إلى الساعة بجواره على طرف الطاولة، لايزال الفجر بعيداً، كل الذي نامه نصف ساعة.. كيف اتّسعت ثلاثون دقيقة للسفر في الزمان والمكان؟ ابتسامة متعبة، دسّ قدميْه في النعال، واتّجه إلى المبرد.. أخذ جرعاتٍ نَدِمَ عليها رغم عطشه.. الماء البارد ينبهه، وهو في حاجة إلى النوم..

استلقى من جديد، راح يتملّق النوم بكل طريقة سمع عنها أو جرّبها من قبل. عدَّ حتى المائة، مائة وعشرين.. تلعثم، تنبّه، بدأ العدَّ من جديد، وصل إلى مائة وخمسين.. انتقل إلى آية الكرسي، ثلاث مرّات قرأها، قالوا لا تتحايل على النوم فتُحْ عينيك في السقف وانتظر، فتّحَ.. وظلّ ينتظر، أخذ كل الأوضاع الهندسية مع المخدّة.. الوقت لا يتحرّك.. ربع ساعة ما بين مقابلة هتلر وكل هذه الأهوال، المخدّة تحت رأسه، فوق رأسه، بين فخذيه، على صدره.. استدار على نفسه مثل قطعة الكرواسان، تلوّى مثلَ الدودة، تمدّدَ مثلَ سمكة ميتة، وضع صفّ وسائد خلفه، واستند مثلَ عجوز يعاني أزمة ربو، نقل الوسائد تحت ساقيه، أصبح مقلوباً مثل امرأة في غرفة الولادة!

ماكو فايده!

«النوم شيء ليس في الكتب»، أعجبته العبارة، لكنه

متأكد أن الكلمة الأولى ليست «النوم».. ما هي الكلمة الحقيقية؟ حاول، لم يجدها.. هل هي: «الشيء»؟ ما هذه السخافة؟ هل يستطيع أحمق أن يقول: الشيء شيء ليس في الكتب؟ استمرّ في المحاولة، اجتذب إلى الجملة كلَّ الكلمات المختزنة في ذاكرته على وزن النوم: الثوم، العَوْم، الدوم، اللَّوْم، الصَّوْم... لم يصل إلى نتيجة..

فكّر في حلّ آخر يوصله إلى الكلمة الناقصة، سأل نفسه: ما هو الشيء الذي ليس في الكتب؟

احتار في الجواب..

حين فكّر في العبارة المحفوظة: «في الحقيقة، في الواقع، يعني.. فإنّ هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل..» ابتسم.. ابتسم في ظلام الغرفة لأنّه تذكّر مديره في الشغل، الذي يبدأ اجتماعَ أيّ جلسةٍ بهذه المسكوكات اللغوية الجاهزة..

ما علينا منه..

المهم.. ما هو الشيء الذي ليس في الكتب؟

أشياء وايده..

طيب.. ما هو الشيء الذي في الكتب؟

وعاد يرمق الساعة على طرف الطاولة، عقاربها تضيء بفسفور أحمر.

ربع ساعة أخرى..

يا نوم، بحق الله، تعال، في أيّ كتاب أنت؟

ولم يعرف ماذا حدث...

....

لم يعرف هل أيقظه ضوءٌ متسلّل من بين الستائر صبَّ في عينهِ نصفِ المغمضة، أم هو جرسُ التليفون؟!

جاءه صوتها الراعش بالحنان:

– الله بالخير يا وليدي.. أزعجتك؟

اعتدل قليلاً..

– لا يمَّهْ، صبَّحَك الله بكل خير، أنا ما نمت عشان أصحى..

– صوتك نايم.. زين..

– شويّه.. نمت شويه..

– أنا جاهزه..

– لازم يمّه؟ وفّري صحتك..

– لازم، هذي أمّ عيالك.. و.. و..

– أعرف، أعرف، ما حاجة تقولين.. كيفك يمّه..

عاد ينظر إلى الساعة..

– شوفي يمّه، خلود كلمتني في منتصف الليل، قالت أمي طالعة المطار الحين.

– من وين كلمتك خلود حبيبتي؟

– من بيت خالها في فرانكفورت..

– كم ياخد الوقت؟

– يبدّلون في باريس طيارة ثانية.. يعني فيها ساعتين.. ثلاث حتى توصل.. بعد ساعة أسأل المطار..

– ولهت على خلود..

تنهّد بحرقة.. سألها مجارياً:

– وياسمين!

– كلّهم أولادك، وكلّهم نور عيني، لكن ياسمين مو بهالكثر مثل خلود..

– كلّهم أولادي.. كلّهم يتساوون؟!

– لأ، خلود تناجرين وايد، تذكّرني بطفولتك، يوم كنت في عمرها، ياسمين مثل أمّها.. ساكتة..

عاد يتنهّد بحرقة..

– طيب.. استريحي ساعة، ساعتين، ولما أعرف متى الوصول أمرّ عليك..

– زين، مع السلامة..

أعاد السمّاعة إلى مكانها، لكنّ المكالمة استمرت تلعب بخياله.. خلود تحدّثت إليه من منزل خالها أدولف، حاول أن يستعيد كلماتها بدقّة. هل قالت ماما في طريقها إلى المطار، أو إننا في طريقنا إلى المطار؟ كيف فاته أن يكتشف الفرق، ويدقّق؟ وقعت نظرته على: «التدخين ضارّ جداً بصحتك، ننصحك بالابتعاد عنه» فمدّ يده والتقط سيجارة. هل يعقل أن تعود وحدها وتترك البنتين «رهينة» عند خالهما؟ أدولف عاقل ولن يسمح بهذا العبث، وبيننا معاملات تجارية، إذا أخته تمادت في إثارة المشاكل، لا بدّ أنْ يتأثّر، وهو الخاسر!!

امتدّت يدُه إلى التليفون، وبعد أن ضرب المفتاحَ الدولي تراجع، وَضَعَ السماعة.. لا داعي.. ماذا يظن أدولف؟! أنني خفيف، متوقّع الغدر؟ لا، أنا لست خفيفاً، حتى لو كنت متوقّع الغدر.. إذا حدث لكل حادث حديث.

تضايق جداً من أن مخاوفه ساقته إلى هذه النقطة. حاول أن يخفّف عن نفسه، بأن يتذكّر لها شيئاً جميلاً.. الآن قفزت الكلمة المجهولة.. «الذوق» تمام، «الذوق شيء ليس في الكتب». فعلاً، كان هناك يعقد صفقة سيّارات جديدة مستعملة.. ساقته عمليات المكاتب إلى أدولف، ألماني درجة أولى، ثم رآها في سفرات تالية.. هتلر قال: «الألمان أحسن

ناس في العالم، السلاف أجمل نساء في العالم» حين عرف أن أمها من أصل روسيّ قال على طريقة ديكارت: «أنا أفكّر فأنا موجود، أنا أتزوّجها.. فأنا أمتلك العالم»..

تزوّجها.. وأخذ العالم بين يديه..

بعد سنة جاءت خلود سنة أخرى.. وصلت ياسمين، سنة ثالثة ظهرت عليها علامات الضيق، السنة الرابعة.. تحوّل الضيق إلى مضايقة.. السنة الخامسة تحوّلت المضايقة إلى جفوة.. وصلت حدّ «الاعتصام» في السرير.. والصمت! تقول له أنت تغيّرت.. وأحياناً: أنت ظهرت على حقيقتك.. ولم تكن الرجل المناسب.

يقول لها: تزوجتك بطموحي، لا بقلبي.. وهذا جزائي، ولن أتوب عن أكل المكبوس، والهريس، وشرب اللومي حتى لو خرج الامبراطور غليوم من قبره!! أشعل سيجارة أخرى، ولم ينظر إلى الجملة التحذيرية..

«تكون مصيبة لو جاءت وحدها وتركت البنتين، ولو بدعوى تعليمهما تعليماً داخلياً راقياً».

فعص السيجارة بعد نفس واحد. لعب خياله.. استولى عيه حلمُ اليقظة، واستهزأ بنفسه كيف يكون وهو رجل المال والأرقام ضعيفاً، يحلم، ويهرب إلى الخيال بهذه الطريقة!؟ كانت قدمه في الفخّ، يتذكّر منظراً رآه في برنامج عالم الحيوان: ذئب في منطقة ثلجية، أطبق فخٌّ حديديٌّ على قدمه، رأى الذئبُ الصيّادين المختبئين يقبلون عليه، عرف بغرائز ملايين السنين من العداء الطبيعي أنه الموت! من الذي أخبر الذئب أنّ أجداد هؤلاء الصيّادين سلخوا جلد أجداده وباعوه في الأسواق؟ بقوّة اليأس جذب الذّئب جسده في خطفة واحدة.. ترك قدمه في الفخّ، وانطلق يعدو بثلاثة أرجل، وخط أحمر يلوّن الثلوجَ البارقة..

وجاءه صوت مذيع التلفزيون، كئيباً، ولم يعرف لماذا كان المذيع ينظر إليه وكأنه يعلن الخبر له وحده:

«جاءنا الخبر التالي.. فوق المحيط، وبعد مغادرة مطار أورلي بنصف ساعة سقطت طائرة ركّاب.. من بين الضحايا..»

سمع اسمها بدقّة، إنها هي.. ولكن: البنتان.. خلود وياسمين؟! أحسّ بقهر ليس له مثيل.. طاح الجمل بما حمل.. والآن: أين يذهب، ماذا عليه أن يفعل؟!

نظر إلى شاشة التلفزيون.. كانت سوداء، باردة، صامتة.. لم يعرف من الذي أداره. من الذي أغلقه؟! قبل أن يفكّر في الجواب، أطلّ المذيع نفسه، النظرة مختلفة، بحزن أقلّ، لا.. بدون حزن.. لا.. بسعادة مختفية وراء اللهجة المحايدة:

«جاءنا التصحيح التالي من إدارة الطيران:

إن زوجة جاسم الألمانية الأصل هي وحدها التي كانت على الطائرة.. أما ابنتاه فهما لا تزالان في مطار أورلي، وعليه أن يذهب للقائهما فوراً، وبخاصة أن البنت الصغيرة ليس معها حفاظات».

وانتبه إلى رنين التلفون. جاءه صوت الأم:

– جاسم يا وليدي.. وينك؟ ساعة ساعتين ما اتّصلت؟ خير يا وليدي؟

التقطت عينه الوقت. قال: نمت يا يمّه.. حالاً.. خمس دقائق أنا عندك.

قفز، دخل في الدشداشة الجاهزة، سقطت قدماه في «الجوتي»، وضع الغترة على كتفه، رشّ عطراً خاصاً.. أدار السيّارةَ بالريموت كونترول وهو يغلق الباب.

الله ستر....

استقبله صديقُه مديرُ الجوازات على الباب الداخلي، أخذه من طريق جانبي إلى ممرّ الوصول..

كان الركّاب يلهثون بأحمالهم في الممرّ على الأرض الناعمة.. حمد الله كثيراً على الوصول في آخر لحظة مناسبة.. أطلّتْ خلود تحمل عروستها، ففاح عطر الحياة من قلبه.. ومن خلفها كانت ياسمين نائمة بين ذراعي أمّها.. نظر إليها.. إنها كما هي دائماً..

تقدّم إليها، قدّمت إليه الطفلةَ النائمة.. حملها بين يديه، أعفته هذه الحركة من معانقة زوجته أو تقبيلها عند اللقاء كما هي عادتهما.. قال هامساً: هلا أوليفيا.. هلا يا عيوني..

مضى أمامها.. يتمعّن في ملامح الملاك النائم بين يديه. نسي تماماً موضوع التلفزيون، وكل الموضوعات الأخرى(*).

الكويت

(*) مع القصّة أرسلت الكاتبة تعليقاً عليها. ومن دأبنا أن نهمل التعليقات فنترك القارئ يستشفّ ما يريد أن يستشفّ ممّا يقرأ، سوى أنّنا هذه المرّة ارتأينا نشر التعليق ليرى القارئ إلى أيّ مدى استطاعت الكاتبة أن تحقق مبتغاها. وفيما يلي التعليق (الآداب):

«هذه القصة ذات أبعاد ثلاثة: ١– الرجل الذي يشعر بأن زوجته لا تحبه، فهو يتمنى الخلاص منها بالأحلام، ولكنه لا يجسر على مصارحة نفسه بذلك؛ ٢ – المجتمع فاقدٌ للتماسك نتيجةً لاغتراب ابنائه عن طريق الزواج [بأجنبيّات]، [فهو يعاني من] سيطرة مركّب النقص عليه؛ ٣ – الرمز السياسي، فنحن نتعلّق بالأجنبي ونكرهه [في الوقت نفسه] ولكنّنا لا نملك شجاعةَ التخلّص منه!».